

٢- دعاية الجاحظ

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

ولقد رأيت في الناس من يحسب أن التنادر من الشيء الهين ، الذي يستطيعه كل إنسان ، ويقدر عليه كل شخص ؛ وهذا حسابان خطأ ، فإن التنادر فن له ثقافة ودراية كسائر الفنون ، ولا بد في حذقه من استعداد موهوب ، وملكات فطرية ، يتصل بعضها بالقلب ، وبعضها بالعقل ، وقد يناقض بعضها بعضا ، وقد لا تجتمع كلها لشخص واحد ، ومن ثم اختلف حظ الناس في إجادة هذا الفن ، كاختلافهم في إجادة الشعر والكتابة والرسم وغيرها ، ففهم الذي يبلغ في ذلك مرتبة العبقرية ، ومنهم من يقف عند حد النبوغ ، وفهم من هودون ذلك وأقل ، ثم تتدلى وتتدل حتى تقع على البليد الأصم الذي لا يفهم ما يقول ، ولا يفقه ما يقال ، فهو آخر الجمادات في فقدان الشعور ، وبلادة الأحساس ، وإن كان قد تميز بالنطق ، وبالنطق لحسب !

ومن أجل أن نقيم الأود في هذا الخطأ على وجه أوضح ، ونعطي الموضوع بعض ما يستحقه من الشرح ، نقول : بأن التنادر لا يقف في اتجاهاته ومراميها عند حد العبث والضحك ، ولكنه في الواقع يقصد إلى ما هو أهم وأجل ، ويرمى إلى أغراض متعددة ، كل غرض منها يعتمد على ملكات ولا بد له من استعداد خاص ، فن ذلك السخر وهو يقوم على الذكاء وقوة الإدراك ، وحسن المفارقات ؛ والدعاية وهي تعتمد على انبساط النفس ، ومرح الطبيعة ، وخفة الروح ؛ ثم الهزل وإنما يكون عن استهانة بتكاليف الحياة وعظائم الأمور ، وتفريط في الواجب ؛ وقد يتدفع الإنسان إلى الهزل والعبث بدافع العطف والتبسط ، كما تضحك من طفلك الصغير ، ومن أصحاب النقص وذوى العاهات . وقيل في الناس من يجتمع له كل هذه الجهات بملكاتها كما كان الجاحظ ، وكثير من نجده يجيد الضرب والضربين ، فهو في أحدها يقطع ، وفي بعضها يقف

على أنه لا بد لحذق هذا الفن بعد كل هذه المواهب والملكات من ثقافة بضرويه ، وعلم بمسالكة واتهاجه ، حتى يمكن للتنادر أن يقع بالتنادرة من قلوب السامعين موقعا يهز المشاعر ، ويشفي نجي البلايل ، وقد تكلم الجاحظ في نبيان التهج الذي يكون به أداء التنادرة وحظها من القبول والاستملاح والاستطابة فقال : « والتنادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من التنادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب ويأخذ بالأنفاس ، التنادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة ، وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط ، وإنما الشأن في الحار جداً والبارد جداً ... »

ومنى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فأياك وأن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها ، فإن أنت غيرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فأياك وأن تستعمل فيها الأعراب أو أن تنخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الأمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم لإياها ، واستملاحهم لها .. (١) ، رثمت ناحية لا أحب أن تغرب عن البال ، وهي أن الإنسان وإن اجتمعت له ملكات التنادر ، وتمت له مواهب الدعاية ، وكان على علم بشرائط ذلك وضرويه ، فإنه مع هذا كله لا يستطيع أن يكون له في هذا الفن إلا إذا استوفى شرائط أخرى في هيئته ومخبره وإشاراته ، وما هذه الشرائط في الواقع إلا أداة هذا الفن وآلته ، فكما أنهم ارتضوا للخطيب نمطاً خاصاً في موقفه من اعتبار المعاماة ، واصابة الإشارة ، وجهارة الصوت ، وجودة الإيقاع ؛ وكما أنهم اشترطوا للمنادم بزة معلومة من الزى ، وحسن الحديث ولطف المدخل ، فكذلك رأوا من شرط المسامر والمناذر أن يكون خفيف الإشارة لطيف العبارة ، ظريفاً رشيقاً ، لبافريقاً ، غير قدم ولا ثقل ، ولا عتيف ولا جهول ، قد لبس لكل حالة لباسها ، وركب لكل آلة أفراسها فطبق المفاصل ، وأصاب الشواكل (٢) ، ولقد تم للجاحظ كل هذا من مواهب الفن وملكاته ، فبلغ فيه مبلغ العبقرى النادر ، وكان له في كل ضرب من ضرويه واتجاهاته ، يتكلم فيها براً لا ذعاً ، ويداعب مداعبة حلوة سائغة ويهزل هزلاً هو مراح الأرواح ، وأنس القلوب . وإنك لتجده في سائر كتاباته وأحاديثه يحمل القول بالتنادرة ، ويخط الجدل بالدعاية ، فيجمله حيلاً إلى النفوس ، سهلاً في التناول ، وما أعرف للجاحظ ضربياً في تلك الناحية غير الكاتب الإنجليزي الماجن صاحب « الأفكار البليدة » (٣) فقد كان ذلك الكاتب خفيف الروح ، فريم الفكر ، له آراء صائبة ، ولكنه كان يسوقها إلى القارئ مساق الدعاية والتفكه ، وكان مشغوقاً بنقض ما تواضع عليه الناس من الفضائل والأخلاق ، فيحسب الغرور فضيلة ، والقناعة بلاذة ، ويرى أن أهل الخير والطيبة على باطل ، وإنه في ذلك لك الجاحظ إذ كان يكتب في الأمور المتناقضة ، والحالات المتضاربة ، فيحتج لفضل السودان على البيضان ، ويفتخر للرماد على المسك ، وإن الشبه ليشد بين الرجلين إذ يتحدث كل منهما عما يتصل بنفسه ، ويمسه في شخصه ، ولقد وقفت على فصل لذلك الكاتب يتكلم فيه عن الذاكرة ، ويتنادر

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١١١ ط السندوي

(٢) جمع الجوامر ص ٧ للحصري

(٣) هو الكاتب الفكه حيروم م . م . كان يسمى نفسه بالفكر البليد ، وله

كتاب سماه الأفكار البليدة . . .

بالحداد ، غمره بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ، وبطيل أمره قليلا ، فلفظه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فان الضرر على ساقى ، وليس يجزع ولا ساجة . فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . وقال ابن دؤاد لمحمد ابن منصور وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه !! ثم قال يا غلام صر به إلى الحمام ، وأمط عنه الأذى ، فزرع منه الغل والقيد وأدخل الحمام وقد حمل اليه تحت من ثياب وطويلة وخف ، ثم جاء فصدرة المجلس ، ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان (١) .

وكم كنا نشتهي أن يصلنا ذلك الحديث الذى لا تشك في أنه كان عذبا شبيهاً ببيض بألوان من المرح ، وفنون من الانس ، قد توثب فيه الجاحظ على طريقته من نادرة إلى نادرة . وتنقل به من طريقة إلى طريقة . فياترى ما ذا قال أبو عثمان ، وبماذا أجاب ابن أبى دؤاد ، ولماذا سكت الرواة ؟

وله بقية ، محمد فهمى عبد اللطيف

(١) اعتمدنا على معجم الادباء في تلك الرواية وقد حذفنا ما لا يتصل بمقام الكلام

بضعف ذا كرتة حتى بلغ به أنه كان ينسى اسمه في بعض الأحيان ، فأذكرني ذلك بما كان من أمر الجاحظ إذ قال : نسيت كنييتي ثلاثة أيام ، فسألت أهلي بماذا أكنى فقالوا لى : أبو عثمان !!

ولقد كان الجاحظ في كثير من قبح الشكل ، ودمامة الخلفه ، وقصر القامة ، ونشوز التركيب . ولكنه كان على الرغم من ذلك كله طيب المحضر ، شهي الحديث ، خفيف الروح . ظريفاً في إشاراته ، فكان بذلك ربحانة السامر ، وأنس النادى ، ومهوى الرؤساء وولادة الامر ، يطلبونه لحفته ، ويحرصون عليه اظرفه ، ويعمرونه لذلك المرح الذى يفيضه عليهم . وأسوق اليك من ذلك طرفاً : حدث الرواة أن الجاحظ كان في جانب الوزير ابن الزيات ينصره على القاضى ابن أبى دؤاد ، وقد كان الشتان مستحكماً بين الرجلين ، فلما غضب المتوكل على ابن الزيات وقتله ، وتم الظفر للقاضى ، خاف الجاحظ على نفسه التلف ، فطلب السلامة بالحرب ، فلم يلبث أن قبض عليه ، وحمل إلى ابن أبى دؤاد مغلول العنق ، مقيد الرجلين ، في قبض سمل . فلما وقف بين يديه ، أرسل القاضى في طلب حداد . فقال الجاحظ أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ قال : بل ليفك عنك ! فلما جرى

صدر العدد الثانى من مجلة

الرواية

وهى مجلة للنقصى العالى والسمير الرفيع تصدرها ادارة الرسالة في ٧٦ صفحة

هى تعتمد فى الغالب على نقل مراع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والرحلات والمذكرات والاعترافات والسير . وسيكون دستورها : الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى الرسالة العقل ، وترفع القصة كما ترفع الرسالة المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل الرسالة أدب العرب

كتاب الغربىيون

جان جاك روسو	فرنسيس دوير
جى دى موباسان	ديكنز
الفريد دى موسيه	بلاسكو ابانيز
لويجي بيرايڊللو	هوميروس
أدجار ألن بو	

كتاب العدد المصرىيون

توفيق الحكيم	درينى خشبة
ابراهيم عبدالقادر المازنى	فليكس فارس
احمد حسن الزيات	الدكتور حسن صادق
محمود الخفيف	الدكتور محمد الرافعى
عبد الرحمن صدقي	

اشترائها السنوى الموقت بمائتة قرشاً فى مصر والسودان وممسمونه قرشاً فى الخارج